

«أبو نعمة»... قاتل كما أراد



حسين الأمين

حزيران 1982. دبابات العدو الإسرائيلي وآلياته على المدخل الجنوبي لمدينة بيروت، فيما طائراته الحربية تدكّ قلب العاصمة العربية المقاومة. مقاتلون لبنانيون من مشارب مختلفة، ومجموعات من المقاتلين الفلسطينيين، يحاولون التصديّ ببطولة لطوابير دبابات المحتلّ في خلدة. يُطبق العدو حصاره على بيروت التي ستصبح، بعد نحو شهرين، العاصمة العربية الثانية بعد القدس التي يدنّسها الاحتلال الإسرائيلي. في أقصى الجنوب، قريباً جداً من الحدود مع فلسطين المحتلة، كان العدو الإسرائيلي مطمئناً إلى أن المنطقة باتت آمنة لجنوده. فالبلاد التي يُقبض على قلبها لن تقوى أطرافها على المقاومة. لكن، كان للشاب اليافع محمد نعمة ناصر، ابن بلدة حدّاثا، رأي آخر. «وصل إلينا في الشهور الأولى بعد الاجتياح. كان يرتدي لباساً عسكرياً، وقال: أريد أن أقاتل»، يقول أحد قادة الجيل الأول من المقاومة. «حينها، لم يكن قد وُجد بعد التشكيل الذي سيصبح في ما بعد حزب الله. كنا مجموعات صغيرة وقليلة هنا وهناك، وبحوزتنا أسلحة قليلة، وإيمان كامل بضرورة قتال العدو بأي طريقة، وكان أبو نعمة من أوائل الملتحقين».

كان عمر محمد ناصر، حينها، نحو 17 عاماً. سرعان ما عاد الى بلدته حدّاثا، لكن هذه المرّة مقاوماً يحلم بطرد العدو، مع إدراك تام لصعوبة المهمة... لكن كل شيء يبدأ بحلم. في تلك الفترة، كانت المهمة الأساسية استقطاب شبّان من أبناء القرى إلى المقاومة، وتخزين السلاح في المناطق المحتلة، وجمع معلومات عن قوات العدو وتحركاتها ومواقعها. وهي مهام لم تكن سهلة، وتترتّب عليها مخاطر جسيمة، منها القتل والإبعاد والأسر وترحيل العائلة أو اعتقال أفراد منها. «كان أبو نعمة واحداً من قلّة بدأت العمل في المقاومة داخل ما سيُعرف لاحقاً بقرى الشريط المحتلّ». سرعان ما تمكّن أبو نعمة ورفاقه من تنفيذ عدّة عمليات ضدّ قوات الاحتلال، في الشهور الأولى بعد الاجتياح. حينها، مبكراً، أدرك العدو أن أناساً من نوع مختلف هذه المرة قرّروا المواجهة وبدأوها من أصعب المواضع وأكثرها حساسية.

تحت وطأة ضربات المقاومة التي تطوّرت كمّاً ونوعاً خلال فترة وجيزة، انسحب العدو الإسرائيلي، عام 1985 نحو الشريط الحدودي. فانتقلت المقاومة الإسلامية الى نوع مختلف من العمل العسكري، أكثر تنظيماً وإيلاماً للعدو.

وفي تلك الفترة، عمل أبو نعمة مسؤولاً عن «الاستطلاع» في قرى رشاف والطيري وصولاً الى بنت جبيل. «كان الاستطلاع في ذلك الوقت أمّ الأعمال العسكرية، وكان يُنتقى للقيام به نخبة المقاومين، وفي مقدّم هؤلاء كان أبو نعمة»، يقول أحد الذين رافقوه في تلك السنوات. «لكنه ما كان ليكتفي بالاستطلاع، بل كان يستطلع ويخطّط ويجهّز ويشارك بنفسه في العمليات، ودائماً كان في المقدّمة».

بعد سنوات قليلة، مطلع التسعينيات، سيصبح أبو نعمة مسؤول «موقع» - «أي محور عسكري في تعبيرات اليوم» - في «محور بنت جبيل» الذي يمتدّ من حدود بلدة صربين إلى قرى نهر الليطاني جنوب النبطية. وقد شهدت هذه المنطقة التي كان أشرف عليها في تلك السنوات بشكل خاص عدداً كبيراً من العمليات

تنقل أبو نعمة في مهام مختلفة من جنوب لبنان إلى شرقه، وسوريا والعراق وحدود فلسطين

يروى مقاوم من مجايله كيف رافقه في إحدى العمليّات في بيت ياحون (قضاء بنت جبيل) عام 1995، و«كان في حينها مسؤول المنطقة، وكان هناك ما يكفي من الأخوة لتنفيذ المهمّة، لكنه أصرّ على المشاركة». وصلت المجموعة إلى «كاراجات» مقابل موقع عسكري للعدو. «كانت الخطة أن نفخّخ الكاراج، ونفجرها بقوات العدو أثناء خروجها من الموقع. تولّينا زرع العبوات الكبيرة، بينما تولّى أبو نعمة الرصد والتأمين». واجهت المجموعة بعض المشاكل، ما أخّر أحد المقاومين في مكان قريب جداً من الموقع المعادي، فما كان من أبو نعمة إلا أن وجّهه بمغادرة بقية المقاومين المكان، وتولّى بنفسه تأمين المقاوم العالق على سائر الموقع، والذي لم يكن قادراً على التحرك قبل الفجر الذي سيحلّ بعد نحو 3 ساعات. «كان شجاعاً ويتحلّى بإيثار كبير.

رفض المغادرة إلا وأنا معه، مع أنني طلبتُ منه أن أؤمّن انسحابه على أن أتبعه». اكتُشف أمر العبوة بطريقة ما، و«جاؤوا بأفضل خبير متفجّرات في جيش لحد، كان معروفاً بـ«المصري»، وكان مصرياً مقيماً في لبنان، ومعروفاً بمهارته في كشف العبوات وتفكيكها (...). ما إن وصل إلى المكان، ومعه مجموعة من العملاء، حتى دوّى انفجار هائل سُمع في كل القرى المجاورة، وقُتل العميل الخبير على الفور، ومعه 4 عملاء آخرين».

في العام نفسه، سيكون «محور» أبو نعمة على موعد مع عملية نوعية أخرى. استطلع، وبرفقته «ملاك» (الاستشهادي صلاح غندور) الطريق المؤدّي إلى «مركز الـ17» الأمني - العسكري عند مدخل بنت جبيل. قاما بدوريات عديدة. ساعات طويلة في حرج بيت ياحون أمضاها الشهيدان معاً. في يوم العملية، كان أبو نعمة في حرج بيت ياحون يصور العملية ويتابع مع غندور عبر اللاسلكي حتى اللحظة الأخيرة، عندما فجّر ملك سيّارته بآليات العدو وأحالها أكواماً من حديد وجثث.

«قضت المهمة أن ينسحب أبو نعمة من الحرج بسرعة ومعه مقطع الفيديو. ورغم الخطورة الشديدة للانسحاب من هناك حينها، بفعل الإجراءات التي نفذها العدو فور وقوع العملية، تمكن من الخروج والعودة بمقطع الفيديو الذي خلاص العملية».

في الأعوام التالية، حتى التحرير عام 2000، بقي أبو نعمة كادراً أساسياً في «محور بنت جبيل»، يخطط وينفذ العمليات، وأبرزها عمليتا موقعي بيت ياحون وحدّ اثا عام 1999.

عقب التحرير، انتقل الى عمل من نوع آخر. «هدأت الجبهة، ولم يهدأ أبو نعمة، فكان من ضمن الفريق الأول الذي عمل في ما كان يُعرف حينها بملف فلسطين، وتولّى مهام دعم ومساعدة فصائل المقاومة داخل الأراضي المحتلة لسنوات عدة». وبعد ذلك، انتقل إلى العمل كضابط في «عمليات جبل عامل»، القيادة العسكرية لجنوب لبنان. وفي حرب تموز 2006، كان في منطقة كونين - بيت ياحون - حدّ اثا، القرى الأقرب إلى فلسطين. «وشارك في التصدي لقوات العدو المتقدّمة في حدّ اثا، وخاص بنفسه مواجهة بالأسلحة الفردية مع قوات نخبة العدو من منزل الى منزل».

بعد الحرب، تولّى مسؤولية العمليات في «مقرّ سيد الشهداء (ع)»، المسؤول عن الجنوب. حتى عام 2012 حين اندلعت الحرب في سوريا. كانت أولى محطاته في منطقة الزبداني، ومنها الى حمص التي تولّى مسؤوليتها، و«كانت معركة الخالدية في حمص قاسية جداً، قادها بنفسه، وكان على رأس القوات المهاجمة لكسر دفاعات المسلحين».

وبعد عامين، سيستقل أبو نعمة طائرة في مطار دمشق، مع مجموعة صغيرة من كوادر المقاومة، إلى بغداد.

كان تنظيم «داعش» يوسّع سيطرته بشكل متسارع، ف«تولّى أبو نعمة الإشراف على منطقة واسعة في سامراء، ثم جرف الصخر وأمرلي، حيث شارك في هجوم كبير كان باكورة الانتصارات ضد التنظيم». بقي أبو نعمة في العراق نحو 3 شهور، قبل أن يعود مجدداً الى سوريا، ثم إلى السلسلة الشرقية حيث تعرّض لإصابة خلال القتال.

وبعد استشهاد القائد حسن محمد الحاج عام 2016، تولّى أبو نعمة مسؤولية وحدة «عزيز»، و«منطقة عزيز» كانت من أصعب المناطق لجغرافيتها الصعبة والمعقّدة، لذلك كان العمل فيها مضاعفاً على مستوى البناء والإعداد والتجهيز». بعد عملية «طوفان الأقصى» كان أبو نعمة يراقب من أحراج الليونة ورأس الناقورة، نهاريًا وعكسًا وحيثًا وغيرها من المناطق التي حفظ مناطقها ومواقعها وأسماء أحيائها، وأحصى أنفاس جنود العدو فيها. «بعد قرار تفعيل جبهة الإسناد للمقاومة في غزة، أشرف على العملية الأولى الناجحة التي نفّذها مقاومون من الجهاد الإسلامي، اقتحموا الأراضي المحتلة واشتبكوا مع قوات العدو في عرب العرامشة».

كانت هذه افتتاحاً مدوّياً لمئات العمليات التي سيشرف على تنفيذها أبو نعمة لاحقاً، حتى يوم استشهاده أمس. «خلال الشهور التسعة التي مضت، كان كما عهدناه، شجاعة ورباطة جأش وهدوءاً واطمئناناً»، يقول أحد كوادر المقاومة في الجنوب، و«خلال الفترة الماضية، أبدى سرعة في التأقلم والتكيّف مع تطورات المعركة، وكان دائم البحث عن أساليب لتطوير العمليات والنتائج».

المصدر: جريدة الأخبار